(بحوث الندوة)

القواميس فنٌّ وعِلم

د. أحمد شفيق الخطيب

تمهيد: قاموس ومُعجم

الواقع كلمةُ «معجم» سبقَتْ لفظَة «قاموس» للدلالة على مَعناهما المتَعارف – بمعنى كتاب يحوي مُفرداتِ اللغةِ أو مُختاراتٍ منها، مُرتّبةً حسَبَ نظامٍ مُعَيَّن، يَشرحُ معانيَها ويُبيِّن دلالاتها.

واللفظةُ «معجم» هي أصلاً من الجَذْر عجَم: يُقال: عجَم الحَرْفَ أو الكتابَ أي أزالَ إبهامَه بالنَّقْطِ والشّكْل. وأعجَمَ الشيءَ: أزال غموضَه وأوضحَ مَدلولَه.

ومن هذه الدلالةِ جاءت تسميةُ الحروفِ الهجائيةِ بـ «حُروف المعجَم» نظراً لكون النَّقْط في كثيرٍ منها يُزيلُ التباسَها. ومنها أيضاً جاءَت تسميةُ الكتابِ الذي يُزيل التباسَ معانِي الكلماتِ وغموضَها بـ «المعجم».

كلمة «قاموس» تعني لُغَويا البحر. وإنما اكتسبَتْ معناها المتعارف، كما أسلَفْنا أعلاه، أواخرَ القرنِ التاسعَ عشَرَ مع بداياتِ عصرِ النهضة الحديثة.

وقِصّتُها تبدأُ مع القاموس المحيط لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٧٢٩ – ٨١٧ هـ). وهو معجم لغويٌّ يُعدُّ أشملَ المعاجم المتوسطة الحجم، احتذَى فيه الفيروزآبادي نَهْجَ الصحاح، أي بالترتيب الهجائي على أواخر أصول الكلمات – وهو في رأيي ورأي الكثيرين الترتيبُ الأمثلُ الذي تقتضيه طبيعةُ اللغةِ العربيةِ بسَعَتها الاشتقاقيةِ التي لا تُجارى. وقد حظيَ «القاموسُ المحيط»

باهتمام العُلمَاءِ والدارسين شَرْحاً ودرساً واختصاراً ونقداً وتعليقاتٍ بما لم يَحْظَ به أيُّ مؤلَّفٍ آخَر.

فقد أكثر الدارسون من استخدامه مُستعيضين به عن المطوَّلات. وقد تُرجم إلى اللغةِ اللاتينية عام ١٦٣٢م واعتمده المطران جرمانوس فرحات أساساً لِمؤلَّفه «باب الإعراب في لغة الأعراب» عام ١٧١٨م، وشرحَه المرتضى الزَّبيدي **(١٧٣٢– ١٧٩٠) في تاج العروس في شرح جواهر القاموس** ذي العشرة مُجلَّدات.

وفي بداياتِ عصر النهضة صدر القاموس المحيط مطبوعاً في الهند ثم في مصر عام ١٨٧٢. وكانت نُسخ هذا المعجم تُعَدُّ بالآلافِ قبل صدوره مطبوعاً. ونقده مُطوّلاً أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤– ١٨٨٨م) في «الجاسوس على القاموس» وأحمد تيمور باشا (١٨٧١– ١٩٣٠) في «تصحيح القاموس»– فلا غرابة أن لاقى القاموسُ المحيط المطبوعُ انتِشاراً واسِعاً بين جماهير المتعلِّمين كأهمِّ مرجعٍ لمعرفةِ مُفردات اللغة.

واختُصر الاسم من القاموس المحيط إلى كلمة «القاموس» فقط، وأخذت اللفظةُ تَشيعُ على ألسنةِ الناس بمَعناها المتعارف اليومَ حتى طغَتْ أو كادَتْ على لفظة مُعجَم.

وعندما ألَّف سَعيد الشرتوني «أقرب الموارد» عام ١٨٩٠ أثبتَ فيه المعنى المولَّدَ– فقال: القاموس: البَحْر، والقاموسُ: كتاب الفيروزآبادي في اللغة العربية لَقَّبه بالقاموس المحيط؛ ويُطلِقُه أهلُ زمانِنا على كلِّ كتابٍ في اللغةِ، فهو يُرادفُ عندَهم كلمةَ مُعجم. وبلَغ من شيوع اللفظة أنَّك لو تطلبُ المدخَل «مُعجم» في الموسوعة العربية الميَسَّرة، الصادرة عام ١٩٥٩، فلنْ تجِدَ مقابلَ اللفظة إلاّ

الإحالة- أُنظر: قاموس! وقد أقَرَّ مجمعُ اللغة العربية هذا المفهوم في المعجم الوسيط في طَبعاتِه الثلاث منذ ١٩٦٢ حيث يقول:

القاموس البَحْرُ العظيم، والقاموس علَمٌ على مُعجم الفيروزآبادي وكُلِّ مُعجمٍ لُغَوِيٍّ على التوسُّع.

واللافتُ أن علماءَ العربية الذين دَوَّنوا مفرداتِ اللغة وشرحوها في مؤلفاتهم لم يَسْتخدموا لها لفظةَ «معجم» بل حَرَصُوا على تسمِيتها بأسماءٍ مختلفة.

بدءاً بكتاب :

العين – للخليل بن أحمد الفراهيدي –٧٨٦م.

ثم الجَمهرة – لابن دُريد – ٩٣٣م.

وديوان الأدب – للفارابي – ٩٦١م.

وتهذيب اللغة – للأزهري – ٩٨١م.

والصِّحاح – للجوهري – ١٠٠٣م.

والمجمل والمقاييس – لابِن فارس – ١٠٠٤م.

والمحكم والمخصَّص – لابن سيده – ١٠٦٦م.

وأساس البلاغة – للزَّمَخشري – ١١٤٤م.

والعُباب – للصاغاني – ١٢٥٢م.

ولسان العرب – لابن منظور – ١٣١١م.

والمصباح المنير – للفيومي – ١٣٦٨م.

والقاموس المحيط – للفيروزآبادي ١٤١٥م.

وباب الإعراب في لغة الأعراب – لجرمانوس فرحات – ١٧٣٢م

وتاج العروس – للزَّبيدي – ١٧٩٠م.

وحديثاً:

محيط المحيط – لبُطرس البستاني – ١٨٨٣.

وأقرب الموارد – لسعيد الشرتوني ـ ١٩١٢.

والبُستان – لعبد الله البستاني – ١٩٣٠.

والمنجد – للويس المعلوف – ١٩٤٦.

ومَتْن اللغة – لأحمد رضا – ١٩٥٣.

والهادي – لحَسَن الكرمي أطال الله عمره.

والكافي – لمحمد الباشا أطال الله عمره.

وفي المقابل أُطلقَتْ لفظةُ «معجم» منذ القَرنْ العاشر الميلادي على العديد من المؤلَّفاتِ غيرِ اللغوية المرتَّبةِ على حُروف المعجَم. مثل:

مُعجم الصحابة – لأبي يَعْلَى التميمي.

ومعجَمي الصحابة الكبيرِ والصغير – لأبي القاسم البغَوي.

ومعاجم الشيوخ.

ومعجم البلدان – لياقوت الحموي – ١٢٢٩.

ومعجم الأُدباء.

ومعجم الشعراء.

ومعجم الألقاب وغيرِها.

الحركة المعجمية العربية قديماً:

الحركةُ المعجميّة العربية بدأتْ في مُنتَصف القرن الأوّلِ للهجرة (أواخر القَرنِ السابعِ الميلادي) وكانت غايتُها أساساً تفسيرَ غريب القرآن، وتالياً تفسيرَ غريبِ الحديث، ولاحقاً تفسيرَ غريب الشِّعر وجمعَ النوادِر.

والنوادِرُ هنا ليسَتِ القِصَص التي يُتَندَّر بها – بل الأشياءُ ذاتُ العَلاقةِ المتصِلُ بعضُها ببعض.

مثلاً الشِّبْر: المدى من طَرَف الإبهام إلى طرفِ الخِنْصر.

والفِتْر: المدى من طرف الإبهام إلى طرف السبَّابة.

ثُمَّ الرَّتَب: ما بين السَّبابةِ والوُسطى.

والعَتَب: ما بين الوُسطى والبِنْصَر.

والوَصْم: ما بين البِنْصَر والخِنْصَر.

والفَوت: هو إجمالاً أيٌّ من ثلاثتها – أي المدى ما بين إصبعَين.

أو مثلاً في الإبِل:

السَّليل ولدُ الناقةِ حين تضَعُه، وهو السَّقْبُ إن كان ذكراً، والراشِحُ إذا قويَ ومشى، والتِّلوُ إذا فُطِم، والحُوار حتَّى يُفْصَل عن أمِّهِ والفَصيلُ حين يُفصَل عن أُمه، والحِقّ والقَعود إذا استحَقَّ أن يُركبَ ويُحْمَلَ عليه، والجذَع إذا بلغَ الخامسةَ من عُمره، والثَّني في السادِسة من عُمره، والأنثى قَلُوص، والرَّباع في السابعة، والسّدَس في الثامنة، والبازِل في التاسعة ثم القَهْب. وإذا أسنَّ فهو العَود وهو جمَلٌ أو بَعيرٌ في المراحِلِ الخَمْسِ الأخيرة.

لكِنْ مع اختلاطِ العَرب بالأعاجم وغيرهم من المسلمين، أخذ القلِقون على اللغة يَجمعون مُفرداتِها من أفواه الناس قبلَ أن يُفسِدَها ذلك الاختلاط.

وقد بدأتْ عملياتُ الجَمْع والتدوين عن طريق جَمْع الألفاظِ التي تدورُ حول مَوضوعٍ واحد – فألَّف بعضُهم رسائلَ

في الإنسان وما يتَّصلُ به،

في الحيوان من إبلٍ وغنَمٍ وخيلٍ وطَيرٍ،

وفي النباتِ والمطَرِ والسّحاب واللبن والكَرْم والنَّخل والنَّحْل والعَسل والذُّباب وخصائصِ البشر.

ثُمَّ في البيئة العربيّة ومَعالمها، مثل جبالِ العرب ومياهِ العرب وأسواقِ العرب وداراتِ العرب وغيرِها.

وهو في الواقع ما سبَق للمُعجَميِّين قبلَ العرب من صينيِّين وأَشوريين ويُونانٍ أن قاموا به.

لكنَّ العربَ مع استمرار هذا النَّهْج، بل ومُرافقاً له، تجاوزوا مرحلةَ كُتبِ الألفاظ في المواضيع، إلى فكرةِ المعجم الشامِل الذي يستغرِقُ اللغةَ – بدءاً بكتاب العَيْن للخليل بن أحمد الفراهيدي الأزْدي (–٧٨٦) ثم كتاب الجيم (الذي لم يكتمِلْ) لأبي عَمرو إسحاق الشَّيباني الهَروي (–٨٢١)، اللذين توالَت بعدَهما المعجماتُ على اختلاف نُسُقِها ومناهِجها.

وقد تميَّزت عملياتُ التدوين منذ بداياتِها بالتشدُّد في صَفاء العربية من حيثُ الفصاحةُ والصِّحةُ والنَّقاءُ، فاعتمدَ الجامعون أساسَيْن لذلك:

أحدُهما زمانيٌّ حصرَ التدوينَ في ما قِيل أو سُمِعَ وحُفِظ من أدَب الجاهليةِ وصَدْرِ الإسلام.

وثانيهُما مَكانيٌّ حصرَ الجمْعَ في ما نطقَتْ بهِ البَدْوُ دونَ الحضَر، بل ما نطقَتْ به قبائِلُ مُعيَّنةٌ ظلَّت في تقدير الجامعين بعيدةً عن التأثُّرِ بالأعاجم. فلَم يُؤخَذْ من قُضاعةَ وغسّان وإيادٍ لِمُجاوَرتهم أهلَ الشام، ولا منْ عبدِ قيْسٍ لمخالطتهم الهنودَ، ولا من ثَقيف وأهلِ الطائف لمخالطتهم تُجّارَ اليَمن مُخالطي الأحباش.

وإن كان الخَليلُ رائدُ المعجمية العربية قد استَشْهد أحياناً بالمولَّدين الفُصحاء العالِمين باللغة، فإنّ مُعاصِريه، ومن جاؤوا بعده، لم يفعلوا ذلك. فالأزهري (– ٩٨١م) صاحبُ **تهذيب اللغة** يقول «ولم أُودِعْ كتابيَ هذا من كلام العرب إلا ما صَحّ لي سَماعاً منهُم أو روايةً عن ثِقَةٍ، أو حكايةً عن خَطِّ ذي مَعرفةٍ اقترنَتْ إليها مَعرفتي».

وابن دُرَيد (– ٩٣٣) صاحبُ **الجَمْهرة** يقول في فاتِحَته «وإنما أعَرْناه هذا الاسمَ لأنّا اختَرْنا له الجُمهورَ (أي الرفيعَ السَّامي والكريمَ) من كلام العرب».

والجَوهري (– ١٠٠٣) يقول إنه سمَّى مُعجمه **الصِّحاح** لأنه «ألزمَ نفسَه بما صَحّ عنده، رِوايةً ودِرايةً وسَماعاً ومشافَهةً من أصحاب اللغة الأُصلاء».

وقد نسجَتْ معاجم المتأخِّرين، حتى أغناها، مثل:

لسان العرب لابن منظور (– ١٣١١).

و**القاموسِ المحيط** للفيروزآبادي (– ١٤١٥).

و**تاج العروس** لمرتضى الزّبيدي (– ١٧٩٠) على نسقِ معاجم السابقين مُتجاهِلةً الكثيرَ الكثير من ألفاظ المظاهر الحياتيةِ والحضاريةِ والعلميةِ التي سَرت على ألسنةِ علماءَ كبارٍ في الطبِّ والنباتِ والرياضيات والفلَك والتاريخ والجغرافية.

وقد علّق المستشرق الألماني الشهير أوغَست فيشر على هذه الناحية بقوله:

«إن المعجمات التي صَنَّفها العربُ لم تَجْمع كُلَّ كلماتِ اللغة العربية، بل جمعت الفصيحَ منها فقط».

ثم يُضيف «إن مُنتهَى الكمال لمعجم عصريٍّ هو أن يكون مُعجماً تاريخيّاً يحوي كُلَّ كلمةٍ تُدوولَتْ في اللغة – إذْ إن الكلماتِ المتداولَة في لُغةٍ مّا لها حُقوقٌ مُتساويةٌ فيها. لكنّ المعجماتِ العربيةَ بعيدةٌ كُلَّ البُعد عن وُجهةِ النظرِ هذه».

ألا يفاجئكم مثلاً أن لفظةَ الجَبْر بمعناها الرِّياضي التي أخذ الغرب اسمَ ذلك العِلمَ منها غيرُ واردةٍ بهذا المعنى لا في لسان العرب ولا في القاموس المحيط ولا حتى في تاج العروس – مع أن كتاب «الجبر والمقابلة» للخوارزمي (محمد ابن موسى – ٨٤٩) كانَ معروفاً أواسطَ القرنِ التاسِعِ الميلادي، ونُقِلَ إلى اللاتينية حوالى القَرْن الحادي عشَر!.

كما إن أساتذة مدرسةِ الطب في قَصر العيْني التي ظَلَّت تُدرِّسُ الطبَّ بالعربية قُرابةَ سَبعينَ عاماً عرَّبوا لفظةَ پـريتونيوم بلَفظةِ «پريتون». وجاءنا مُتَرجمو عصر النهضة بالألفاظ هِلْب وخِلْب وهُرْب، ثم اكتشفوا أن المرادفَ اللاتيني Siphac المعروف في الغرب طوالَ عُهود تدريس الطبِّ في كتابِ القانون المترجَم إلى اللاتينية هو الصِّفاق – لَفظٌ عَربيٌّ مُلَتْنَن.

لكن ذلك لا يُقَلِّلُ من حقيقة أن ما أنتجتهُ الحركةُ المعجميةُ في تلك الفترة يشهد بالتفوقِ العربي المعجمي في وقتٍ لم يكنْ مثلُ هذه الأعمال معروفاً في العالمِ الغربي.

يقول الأُستاذ جون هيوود أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة دِرام (دِرهام) البريطانية في كتابه «المعجمية العربية»[١].

«المعجم العربي منذ نشأته كان يهدفُ إلى تسجيل المادة اللغوية بطريقةٍ مُنَظَّمة. وهو بهذا يختلِفُ عن كُلِّ المعاجم الأُولى للأُمم الأُخرى، التي كان هدفُها شَرْحَ الكلماتِ النادِرة أو الصعبةِ».

ويُضيف الأستاذ هيوود «لو أنَّ عربيّاً من القرن الخامسَ عشَرَ عبرَ الزمنَ إلى بريطانيا في القَرن العشرين، لما كان يستغربُ رؤيةَ مُعجم أكسفورد في مُجلَّداته الاثنَي عشَرَ على رفوف المكاتب. فقد كان لدى العَرب في أواخرِ العُصُورِ الوُسطى معجمٌ هو **القاموس المحيط** أصبحَ اسمُه علماً على المعاجم. وقبل انتشار الطباعة كانت نُسَخُ هذا المعجَم تُعدُّ بالآلاف».

ويُتابعُ الأستاذ هيوود «كما كان لدى العَرب معجمٌ جامعٌ شامل هو لِسان العرب، فاق كُلَّ ما أُلِّف من مَعاجمَ في أيِّ لُغَةٍ قبل القرن التاسِعَ عشَر دِقةً وشُمولاً».

الحركة المعجمية العربية حديثاً:

يرتبِطُ تاريخُ المعجم العربي الحديث وتطوّرُه بتاريخ النهضةِ العَربيةِ الحديثة أوائلَ القرنِ التاسِعَ عشر.

وقد كانَتْ أعمالُ المستَشرقين، من أمثال دي سْلان الفرنسي وفريتاغ وفلُوغل وفيشَر الألمان ودُوزي الهولَندي ولِينَ البريطاني، وما اتسمَتْ به هذه

(١) John Heywood ((Arab Lexicography)) Leiden ١٩٦٠.

الأعمالُ من حيثُ المنهجيةُ العِلميةُ – في البحثِ والتحقيق والتدقيق والفَهرسة ومُراجعة الأصول وحُسن العرض، قُدْوةً حسَنةً للرُّوّاد من المعجميين العرب المجَدِّدين أمثال بُطرس البستاني وسعيد الشرتوني وأحمد فارس الشدياق ولويس المعلوف، والمحافظين أمثال ناصيف اليازجي وحَمْزَة فَتْحَ الله وعبد الله المبارك.

لقد خدمَتْ مدرستا المجدِّدين والمحافظين، كلتاهُما، المعْجَمَ العربيَّ بِطُرقها الخاصَّة ووسائِلها. فكانَ من فَضْل المحافظين طبْعُ أو تَشجيعُ طبْعِ المعاجِم العربية القديمة. فصدرَ من هذه المعاجم:

مُختار الصحاح ١٨٧٠، والقاموس المحيط ١٨٧٢، وأساسُ البلاغة ١٨٨٢، وتاجُ العروس ١٨٨٩.

فيما عَمَدَ المجَدِّدون إلى تَحديث المعاجم القديمة وترتيبها في تآليفَ جديدةٍ تتماشى مع المفهوم الحضاريّ العَصري – فكان لنا:

محيطُ المحيط ١٨٦٩ وقطره ١٨٧٠،

والجاسوس على القاموس ١٨٨١، وأقربُ الموارد ١٨٩٣.

وتلاها في القَرن العشرين معاجمُ عِدَّة نذكرُ منها:

المنجد والبُستانَ ومتنَ اللغة والرائد والقاموس الجديد والمعجم العربي الحديث (لاروس)، والمعجم الوسيط والوَجيز والكافي والهادي وسواها.

ولَعلَّ المعجمَ العربيَّ الحديثَ يتمثَّلُ خَيْرَ تمثيلٍ بثلاثةٍ من هذه المعاجم محيط المحيط، والمنجد، والوَسيط.

وثلاثَتُها تعتمِدُ الترتيبَ الألفبائيَّ باعتِبار أوائل الألفاظ، فثَوانيها مجردةً– كما فعل الزمَخشري والفيُّومي. ويتميز محيطُ المحيط بإضافتِه ثروةً من المفردات والتعابير المعاصرة والدارِجة والمولَّدة التي أهملَها جامعو المعاجم العربية، كما ضمَّنَه

الكثيرَ من الفوائد والشوارِد واصطِلاحات العلوم والفنون التي وَفَّرتْها ثقافةُ المعلِّم بُطرس الموسوعية.

المنجد اهتَمَّ بالترتيب والشَّكل والإخراج بحيثُ تبدو فيه تِقْنيّاتُ المعاجم الغربيّةِ الحديثةِ من تقسيماتٍ وصُور ولَوحاتٍ ومَلاحق.

وفي العام ١٩٦٠ صدرَ المعجم الوسيط فاسحاً المجالَ لألفاظِ الحضارة في الحياةِ العامة والمصطلحات في مختلف العلوم مُعَزَّزاً بسُلطةِ مجمَع اللغة العربية في القاهرة وبنَجاحٍ مُتفاوتِ الدرجاتِ في مُجاراة المعاجم الجديدةِ من حيث ترتيبُ عناصِر المادةِ اللغويةِ والاستعانةُ بالرُّسوم والصورِ التوضيحية.

وأعتبِرُ من أَهَم ميزاتِ الوَسيطِ أنه مع التزامِه الترتيبَ الألفبائِيَّ تبعاً لأصول الكلمات فإنه أدرجَ الكثيرَ من الألفاظ التي قد يُشكِلُ تجريدُها من الزوائد وإعادتُها إلى جَذرها الأصليّ حسَب نُطقها – مُحالةً إلى مادة الجَذْر، مثلاً **مَحارة** ترِدُ في باب الميم مُحالةً إلى **حَور**، **وَثقة** ترِد في باب الثاءُ محالةً إلى **وَثق**، و**ميناء** محالةً إلى **وَنَى**.

ولو أنه توسع في هذا النطاق مِثل إيراد **سِنة** مُحالةً إلى **وَسَن**، و**اتجاه** محالةً إلى **وَجه**، و**مسافة** إلى **سَوف** – لتذليل صعوبة البَحث عن الألفاظ المشكِلة التصريف بمدًى أُقَدِّر أنه ما كان ليزيدَ على عَشَرةٍ في المئةِ من حجمِهِ، لقَطَع الطريقَ على الفَصْمِيِّين المنادِين بالترتيب النُّطْقي مُدرجينَ مَزيداتِ الكلمة مُشَتَّتةً عن جَذْرها مُضَحِّين بالترابُط اللغوي العُضوي الذي هو سِرُّ جمال العربية وسِحرِها وبَلاغتِها بحُجَّة التبسيط والتيسير.

القواميسُ عِلمٌ وَفنّ:

مُشكلتي مع القواميس أنها تَسْتَحْوِذُني – هكذا تقول زَوجتي. فالقواميس هي شُغلِيَ الشاغِلُ ليسَ كمادةِ عملٍ فقط بل كهِوايةٍ أيضاً – كمادّةِ قراءة فيها ومِنها وعَنْها، للفائدة أحياناً ولِلتسلية أحياناً. ومن هذا المنطلق أُريد أن أشرِكَكُم معي في بعض التعليقات عن موضوعِ «القواميس علمٌ وفَنٌ» أو بالأحرى على نواحٍ علميّةٍ وتِقْنية لافتة في بَعْض، بل مُعظَمِ، قواميسِنا المعروفة.

قرأتُ في ما قرأت مَقولةً لأحدهم مُفادُها أن المعجمَ العربيَّ الحديث – جذورَه وجِذْعَه وساقَه وأغصانَه وفروعَه والكثيرَ جدّاً من أوراقه وزهرِه عتيقٌ قديم؛ وأن جوَّ البادية والمضارب يفوحُ منه عند تصَفُّحه. ولعَلَّ في هذا شيئاً من الصِّحَّة يزيدُ أوْ يقِلُّ تبعاً للمعجم موضوعِ البحث.

يقول صاحب أحد المعاجم الحديثة[٢]، «واحتفظتُ بالكثير من الشروح المتعارف عليها في المعاجم المختلفة: فلم أرَ حَرجاً في إثباتِ ما أثبَتَتْهُ المعاجمُ القديمة وما نقلَتْهُ عنها معاجمُ القرن التاسِعَ عشَرَ وتابَعتْها عليه المعاجمُ في القرن العشرين».

ونحن طبعاً لا نرى ضَيْراً في ذلك – شرطَ أن يَعرضَ علينا مُحرِّرو المعجم المادةَ، في كُلِّ سَطْرٍ منها، بمَفهومِها العصريِّ والعِلمي الجديدين. كما يقول الأستاذ فيليب غوف محرر معجم وبِسْتَر الدولي الثالث. فلا يُعطونا المسافات بالفَراسِخ؛ مثلاً :

(٢) صاحب الرائد الأستاذ جبران مسعود.

(بَرَدى): نهر دمشق الأعظم، يخرج من **قرية الزّبداني على خمسة فراسِخ** من دِمشق؛ أو (بَدْر): **وادٍ يقع بين مكةَ والمدينة، على ٢٨ فرسخاً من المدينة.**

ولا يضبُطون لنا الكلمات بالعبارة مثلاً: (**البُرَداء**) **كَكُرماء: الحمَّى الباردة – أو مُلْغَم، وِزان مُعْجَم: مزيجُ فِلزٍّ بالزئبق.**

وبحيث لا تتَّسم تلك الشروحُ والتعريفاتُ بالزَّعم والأوهام وبَقايا الأساطير التي إن كان لها ما يُبرِّرُها عند الخليلِ والأصمعي وأبي زيدٍ الأنصاري قبل ألفِ عامٍ أو يزيدُ، فليس لها ما يُبرِّرها اليوم.

لاحِظوا يا سادتي الأمثلة التالية – من حيث علميّةُ الوضع، وعلميَّةُ التحرير في محاولة تعديلها في طبعاتٍ تالية:

في تعريف الكوكب زُحَل، في الطبعة الأولى للمعجم الوسيط قيل: زُحَلُ أعظمُ الكواكِب السيّارةِ وأبعدُها في النظام الشمسي.

هذا التّعريف فقدَ مُقوِّماتِه منذُ قَرنين وعَقْدَين من السِّنين باكتشافِ وِلْيَم هِرْشِل الكوكبَ أورانوس سابعَ الكواكب التِّسعة المعروفة حالياً. وقد انتقل هذا التعريف من هذه الطبعةِ إلى بعض المعاجم الجديدة كالرائد والمعجم العربي الحديث (لاروس) والمعجم الوجيز.

ثُمّ في الطبعة الثانية من المعجم الوسيط حُذفَ جُزءٌ من التعريف، واكتَفى المعجَمُ بالقول: زُحَلُ أبعدُ الكواكب السيّارة في النظام الشمسي؛ وفي الأساطير الإغريقية كبيرُ الآلهة.

وَفي الطبعة الثالثة جاءنا الوَسيط بتعريفٍ يتجاوَزُ العُرفَ المعجمي إلى العُرف الموسوعي يقول فيه: زُحَل (في علم الفَلك) ثاني كواكب المجموعة الشمسية حَجْماً بعْدَ المشتري وسادِسُها بُعداً عن الشمس، يَنْفرِدُ بثلاثِ حلَقاتٍ من الأجرام الصغيرة تدورُ حول خَطِّ استوائه، أشَدُّها لمعاناً الحلقةُ الوُسطى؛ وله عَشرَةُ أقمارٍ تدور حوله خارجَ تلك الحلقات، وعرَفه القدماءُ وظَلُّوا يحسَبونه أبعدَ الكواكب السيارة عن الأرض حتى اكتُشِف أورانوس. وفي الأساطير: ربُّ الغَرس والحَصاد عند الرُّومان، ويقابلُه في الأساطير الإغريقية كرونوس. وفي كيمياء القُدماء، يُقابل، من المعادن، الرَّصاص. وعند المنَجِّمين يُقابلُ النَّحْسَ والشؤمَ والكآبةَ والانقباض.

وسأعود إلى موضوع التعريفات الموسوعية لاحِقاً لأُتابعَ هنا موضوع علمية الوضع وعلمية التحرير.

وفي الطبعة الأولى من المعجم الوسيط قيل في تعريف الزَّبابة: جنسُ حيوان من الحشَريات، وهي في قَدِّ الفأرة، تكثُر في أوربا الشمالية.

في الطبعة الثانية والثالثة، المراجعون لم تعجبْهُم لفظَة **الحشريّات** فقالوا: جنسٌ من **الحشَرات** يكثُر في أوربا الشمالية. وهو خطأٌ بيولوجيٌّ واضِح. فالزبابةُ في الواقع حيوانٌ لبُون (من الثدِييّات)، من آكِلاتِ الحشرات. وهذا ما كان عناه التعريفُ في الطبعةِ الأولى بقوله من «الحشَريّات». وهو ليسَ خطأً! الخَطأُ هو ما وَرَدَ في محاولة التصحيح في الطبعتين الثانية والثالثة.

في محيط المحيط وغيرِهِ من المعاجم يُعَرَّفُ السَّمَنْدل بأنه طائر بالهِند لا يحترقُ بالنار. ويَزيدُ الوَسيط على هذا التعريف «فيما زعموا».

وفي مادة «قَمل» يقول محيط المحيط: القَملُ دُويبّةٌ تتَولَّدُ من الوسَخ والعَرق في بدَن الإنسان إذا علاه ثوبٌ أو شَعر.

والوسيطُ لا يختلِفُ في تعريفه كثيراً إذْ يقول «القملةُ حشرةٌ تتولد على البَدن عند دَفْعِهِ العُفونةَ إلى الخارج». وكلا التعريفين يَعود بِنا إلى نظريّةِ التولُّد التِّلقائي abiogenesis وعِلْم ما قبْلَ پـاستير.

في بروڤـات المعجم الكبير الذي يُعرض علينا أجزاءٌ منه في مؤتمرات المجمع يرِدُ في مادة **حيق** «وحَيْق بلدٌ باليَمن... وقيل جبَل محيطٌ بالدنيا» ثم يليه – وجبَل الحَيْق: قال أبو عبيدة: جبلُ قاف الحائق بالدنيا الذي قد حاق بها أي قد أحاط بها».

وهذا كلامٌ إن جازَ في أَيام أبي عبيدة فلا مجالَ لتكراره اليومَ في معجمنا المستقبلي – معجم العُقود التوالي التي نأملُ ألاّ تطول!

أحياناً عدمُ الدِّقةِ في الأداء، سبَبهُ عدمُ الدقة في الترجمة. مثلاً في مادة «السيف» يقول المعجم الوسيط في طبعاته الثلاث: السيفُ نوع من الأسلحة مَعروف، والسيفُ سمكةٌ على هيئة السيف.

سمكة السَّيف تَرجمة عن swordfish. لكن تعريف هذا المدخل في مَراجعِه العلمية لا يقول بذلك – لا بالشرح ولا بالصورة. فمعجم Oxford مثلاً يقول ما ترجمتُه: هي سمكةٌ بحريةٌ كبيرة ذاتُ مِنقارٍ كالسّيفِ ناتجٍ عن استِطالة عِظام الفَكِّ العُلْوي؛ ويورد صورةً تُوَضِّح ذلك بالتمام والكمال. فالسَّمكة ليسَتْ على هيئة السَّيف – ترجمةً حرفية لِ swordfish – إنما هي ذاتُ مِنقارٍ على هيئة السَّيف.

في مادة «رهب» يقول المعجم الوسيط: الرُّهاب (رُهاب الاحتِجاز) في الطبِّ الباطني، هو خوفٌ مَرضي من الوُجود في مَنزِلٍ أو مكانٍ منعزل بين أربعةِ جدران.

والواقع أن الرُّهاب هو phobia: هلَعٌ مرضي من شيءٍ مُعَيَّنٍ ليس مِمّا يُسَبِّب الخوفَ عادةً. أما رُهاب الاحتجاز المعَرَّف هنا فهو claustrophobia. وموضوعُ الرُّهاب هو من اختِصاص الطِّبِّ النفسي psychiatry وليس من اختصاص الطِّبِّ الباطني internal medicine.

في مادة «زجَج» يقول الوسيط: الزُّجاجةُ هي القطعة من الزجاج، وهي **زجاجة الساعة** في علم الطبيعة: قطعة مستديرة مقعرة يوزن بها أو يوضع بها بعض المواد الكيماوية.

نعم زجاجة الساعة هي غطاء الساعة الزجاجي — Watchglass — transparent cover for the face of a watch: غطاء شفاف يحمي وجهَ الساعة. لكن التعريف المعنيَّ هنا هو معنىً آخر – نصُّه بالإنكليزية هو: A small circular flat-bottomed dish of thick glass with shallow depression used in biology (as for staining, culturing & various phases of microtechnic).

فالمفروض هنا هو watchglass من watch بمعنى مراقبة، وليس من watch بمعنى ساعة.

وإذا شئتُ الاستِطراد في سياق عدم الدقة في الترجمة كسبَبٍ لعدم الدقة في الأداء في المعاجم الثنائية اللغة إنكليزي – عربي مثلاً، فإن الأمثلة تَصْدِمُني دوماً بحُكْم عملي وقراءاتي في معاجمَ تضَعُ مصطلحاتٍ عربيةً لمصطلحات أجنبيَّةٍ مُعرَّبة. اختار بعضها من معجم علمي موسوعي ضخم صدر في أربعة أجزاءٍ أواخر القرن الماضي.

مثلاً في شرح مَفهوم smoothing في مصطلح inductive filter قيل: مُرَشِّحٌ لصَقْل التيار المستمِرّ – فيما smoothing في هذا السياق تعني هنا تَسليس أي تقليل الارتجاج والترجّحُ.

وفي شرح مفهوم fusion في مصطلح controlled fusion قيل «انصهارٌ مضبوطٌ».

وهو في هذا السياق النووي اِندماجٌ مُتحَكَّم فيه. وشتّان ما بين انصِهار واندماج.

وفي مفهوم investment في مصطلح investment casting يقولُ المعجمُ إيّاه «صَبّ استثماري». فيما هذا النوع من الصبّ هو صبٌّ إحداقي أو كُسوي يُصَبُّ فيه القالَبُ شمعاً، ويُكسى النموذج الشمعي بطبقةٍ من الطين صامدةٍ للحرارة، ثُمَّ يُفرَغُ الشمعُ المصهور، ويُصبُّ المعدنُ الفِلزّي مَكانه. واللفظ الفرنسي cir perdue لهذا المفهوم مؤنْكلَز.

لفظ investment هنا لا يحمل المعنى المالي «استثمار» بل يحمل المعنى الكُسْوِي أو الإحداقي أو التغليفي.

في الحساب البسيط يوردُ الوَسيطُ في طبعاته الثلاث خطأً رياضيّاً حيث يقول في تعريف الجذر:

جَذر العدد (في الحساب): العددُ الذي يُضرَب في نَفْسِه أو في إحدى قواه فينتُج ذلك العدد. فجذْر مئة: عشرة؛ وجذْر خمسة وعشرين: خمسَة –

إلى هنا ما قيل صحيح. لكن المعجم يضيف «وجَذر خمسةٍ مرفوعاً إلى قوّته الثانية: مئة وخمسة وعشرون».

والصواب أن جذر خمسة مرفوعاً إلى قوته الثانية هو خمسة فقط٥=٢(٥)

وفي الفيزياء تقرأ في معاجمنا:

الجاذبية: الحالة التي يَجْذِبُ بها صاحبُها غيرَه،

والمغنطيسية: قُوَّةُ تجاذب الأجسام عند دَلكِها وفَرْكها.

يعني إذا دَلكْتَ الزجاج بالحرير، أو شمع الختم بالصوف، يُفْتَرض أن يتولَّد لدَيك مِغنطيسية. والمعروف أن ما يتولّد لدَينا هو كهربائيةٌ ساكِنة موجِبة في الحالة الأولى، وسالِبة في الحالة الثانية.

أمّا لتوليد مِغنطيسية، فالشَّرطُ هو دَلْكُ مادةٍ قابلة للمَغْنَطَة كالحديد، وليس الذهب أو النحاس أو الألومنيوم مثلاً، بأحَد قُطبي مِغنطيسٍ قوي.

وإن شئتم أمثلةً أُخرى، ومن معجمٍ أحدثَ عهداً من الوَسيط، فقد قرأت:

الضوء (النور): تموّجاتٌ مغنطيسية تُعين على رؤيةِ الأشياء.

والكُساح: داءٌ يُصيب الجِمال فتَعرُج منه.

والضوء كما هو معروف تموّجات كهرمغنطيسية –كهربائية مغنطيسية ليس magnetic بل electromagnetic. وتعرفون أيضاً أن أطفالاً كثيرين في بِيئاتنا الفَقيرة يشكُونَ من الكُساح.

القواميسُ عِلمٌ، وهي تِقانةٌ وفَنٌ أيضاً:

من بسائط التقانة المُعجمية، أن المعجمَ حين يُعالجُ مَدخلاً لا يُغفِلُ مثيلاتِه أو مُكمِّلاتِه أو نظائرَه.

مثلاً المنجد في مادة «جَوف» يورد مُصطلحَ الأجوف كتصنيف صَرفيٍّ للفعل في مَدخلٍ مُستقِلٍ يُعرِّفه بقَوله:

الأجوفُ من الأفعال هو الذي عَيْنُه حرفُ عِلّة؛ ويكون واويّاً مثل «قال»، أو يائياً مثل باع.

لكنك لا تجدُ في مادة «مثل» ذِكراً للمثال الذي فاؤه حَرفُ عِلّة، ولا في مادة «نقص» ذِكراً للناقصِ الذي لامُه حرفُ عِلّة؛ وهما التصنيفانِ النظيران المكمِّلان.

في المعجم الوسيط تجدُ مَدخلاً للكوكب أورانوس يُعرِّفه بأنه أحدُ كواكب المجموعةِ الشمسيّة التِّسعة؛ وهو أوّلُ كوكبٍ اكتُشِفَ في العصر الحديث يدورُ حول الشمس مرّةً كلَّ أربعٍ وثمانين سنة. لكنَّه في طبعاته الثلاث يُغْفِلُ نِبْتون وبلُوتو – الكوكَبين الثامِنَ والتاسِعَ في تلك المجموعة.

وهو في مادة «سلَب» يُورِد كلَّ المفاهيمِ لِلَفْظة سالِب – اللُّغويِّ منها والرِّياضيِّ والكيماوي في مجالات التصوير الفوتوغرافي، والفيزيائي في مَجالِ الشِّحنات الكهربائية، والبيولوجي في تَصْنيفِ البكتريا.

لكن في مادة «وجَب» لا تجدُ مقابلَ المدخل «مُوجِب» سوى أنَّ الموجِب هو أحدُ أسماء المحرَّم (شهرِ مُحرَّم أولِ الشهور العربية) في الجاهلية.

المعجم العربي الحديث (لاروس) يوردُ في مادة «جيب» المفهومَ الرياضي: الجَيْب وجيبَ التمام؛ وفي مادة «قطع» القاطِع وقاطع التمام.

لكنه في باب الظاء يُغْفِلُ الظِّلّ وظِلَّ التمام، وهما كما يعلم العارفون على قَدْرٍ مُكافئٍ من الأهمية في عِلم المثلثات.

والمعجمُ نفسُه يورد من الكواكب عُطاردَ والزُّهرَةَ والأرض والمرِّيخ والمشتري وزُحَل؛ ويُغفِل أورانوس ونبتون وبلوتو. ولعلّه في هذا التعريف يتناغَمُ مع تَعريفه

العِلمي للكوكب «زُحَل» – المنقول عن الطبعة الأولى للوسيط – كأعظَمِ السيَّارات وأبعدِها في النظام الشمسي.

ومن بسائط التِّقانةِ المعجميّة أن يَلْتَزِمَ القاموسُ شَكلاً واحداً لِلّفظ الذي يُعالجُه كمَدخلٍ أو كلفظةٍ في مادة الشرح، باعتِبار أن القاموسَ هو مَرجِعٌ في المَبْنى، كما في المعنى. لكنَّ هذا لا نجِدُه مُطبَّقاً دائماً في معاجمنا.

مثلاً الوسيط في طبعاته الأولى والثانية والثالثة يورد تِلفون وتِلفزيون دون ياء بعد اللام في مُوقعِهما كمَدخلين. لكنه يورد تِليفون بالياء في شَرح **هاتف**، وتليفزيون بالياء في شَرح هوائي.

كذلك نجِد في طبعات الوسيط الثلاث أيضاً:

أبريل في موقعه كمدخل بفتح الهمزة،

لكن إبريل بكَسرِ الهمزة في شرح المدخل نيسان.

وكذلك أُكسيجين في مَوقعه، وفي شَرْح أكسيد وإدرُجين وايدروجين، بياءَين – فيما تجِده بياءٍ واحدة (أكسجين) في شرح مدخل «الماء».

ومِثلُ هذا تجدُه في الكثير من معاجمنا.

ولا يُزعجُني في الواقع مُجَرّدُ الاختِلاف في الكتابة إن كانَ تِلفزيون أو تليفزيون أو تيليفيزيون، ولا فسيولوجيا وفيزيولوجيا، ولا إدروجين في باب الألف وهدروجين في باب الهاء، ولا غلفانومتر في باب الغَين وكلفانومتر في باب الكاف، الذي يُغيظُني أن أجِدَ كلا الشكلين في مَوقعَيْهما التَّرتيبي من المعجم مَشروحين ومُعَرَّفَيْن بتَعريفين مُتَباينين، وكأنك تَقرأُ في مُعجَمين مُختلفين!

مثلاً في المُعجم العربي الحديث (لاروس) تقرأ في باب الغين – غلفانومتر: آلة لقياسِ شدة التيارات الكهربائية الخفيفة عن طريق مُلاحظةِ إبرةٍ مُمَغْنطة أو إطارٍ مُوصل مُتحرِّكٍ موضوعٍ بين ذِراعي مغنطيس.

وفي باب الكاف تقرأ –كَلفانومتر تقرأ: مقياسُ القوة الكهربائية أي شِدَّةِ التيّار!

وفي معجمٍ آخر تقرأ في باب الألف الإدروجين: غازٌ لا طعمَ له ولا لونَ ولا رائحة يتَّحِدُ مع الأكسجين فيتكوّن الماء، وفي باب الهاء، الهدروجين: غازٌ شديد الإحتراق عادمُ اللون والطَّعمِ والرائحة يوجد في الماء وفي جميع المواد العُضْوِية، وزنُه الذَّري ١.٠٠٨.

أو قد تقرأ في باب الفاء نَفْسِه مثلاً «فِسيولوجيا» بالسِّين: عِلم يبحث عن ظواهر الحياة في الأجسام الحيّة أي وظائِف أعضائها، و«فيزيولوجيا» بالزاي: علمُ وظائف الأعضاء في الحيوان والنبات.

وهذا كان يُمكن تلافيه بمُجرَّد إحالة شَرْحِ أحَد الشكلين إلى شَرحِ الشكل الآخر. ومثل هذه الإحالات حيث لزوميتها هي من التقانات المُعجمية المُتعارفة.

ومن بسائط التقنيات المُعجميَّة كَفنّ، التمييزُ في المعالجة بين ما يَصِحُّ في مَوسوعةٍ أو مُعجمٍ مُتخَصِّص، وبين ما هو مُناسِبٌ في مُعجمٍ لُغَويّ. ورُغْم عدم وُجود ضوابطَ لتحديد ذلك، فإن الحِسَّ السَّليمَ (common sense بالإنكليزية)، أو ما يُسَمُّونه الحَصافة الفطرية، كفيلةٌ، على ما أعتقد، بتحديد ذلك.

أنا لا أعترض على الطابع الموسوعي للمعجم الحديث بل أُحَبِّذُه، ولا أفترض أبداً أن يقتصر المعجم على المادة اللغوية. فالمصطلحات في مختلفِ ضروب المعرفة هي جُزءٌ مهم من اللغة. وفي شرحها بيُسر وإيجاز خِدمةٌ للباحث قد تُغنيه عن المراجع المطوَّلة.

الطابَعُ الموسوعي هو من أساسيات التِّقانة المعجميَّة اليوم – لكن بالحدود المعقولة التي تفترضُها الحصافة الفِطرية.

قارنْ مثلاً بين ما يقولُه الوسيط في شَرح مادة الحديد –

(الحديد): عُنصرٌ فِلزِّيٌّ يجذبُه المِغناطيس، يَصدأ، ومن صُوَره الحديدُ الزَّهر، والمطاوعُ، والصُّلب (ج) حدائد؛ وبين ما يقولُه القاموسُ نفسُه في شَرح مادة الرصاص –

(الرصاص): عنصرٌ فِلزِّي ليِّن، وزنُه الذري ٢٠٧.٢١، وعدَدُه الذري ٨٢، وكثافته ١١.٣٤ (والصواب أن يُضاف إلى العدد غم/ سم^{٣}، أو أن يُقال وزنُه النوعي لا كثافته) ، ويَنْصَهِرُ عند ٣٢٧م– مع ملاحظة غياب إشارة الدرجة وأن م ليست من المختصرات (الرموز) التي يذكر المعجم أنها مُستخدَمةٌ فيه.

أو أن تقرأ في معجم حديث، كالكافي، مدخلاً مثل **ددت**، مع تعريف يقول: اسمُه العلمي دَيْكلورو دَيْفينيل ثْرَيكلوريتات؛ وهو مادّة سامة شائعةُ الاستعمال الزِّراعي والمنزلي للقضاء على الحشرات، اكتشفَه العالِمُ السويسري مولَر سنة ١٩٣٣.

عِلماً أنّ هذا التعريف مَرفوض اليوم؛ فاستخدامُ **ددت** مَحظورٌ دَوليّاً. ومن المشاكِل القائمة حاليّاً مُشكلةُ التخلُّص من آلاف الأطنان من هذه المادة بشكلٍ لا يُضِرُّ بالبيئة بَشَريّاً وحيَوانيّاً، حاضِراً ومُستقبلاً.

ثم لو يكونُ لمثل هذه المختصرات مُبَرِّرٌ حَصافي، لكان ينبغي إدراجُ ما هو أشهرُ وأهمُّ كثيراً – مثل ر ن أ، د ن أ، تي إن تي، وإتش آي في، ومئاتٍ غيرِها. الواقع، هنالك قواميسُ خاصةٌ لِمثل هذه المختَصرات!

كذلك لا أجِدُ مُبَرِّراً لأن يتطَرَّقَ المعجمُ اللُّغوي إلى مجالاتٍ لا يخطِرُ ببالِ أيِّ مُراجع طلبُها فيه. فمثلاً أجِدُ مَدخلاً مثل قانون جريشام في مادة «جرش» معالجاً في «الوسيط»، بطبَعاته الثلاث، ومُعَرِّفاً بأنه قانونٌ في الاقتصاد السياسي يَنُصُّ على أن النقودَ الرديئةَ تطرُد النقودَ الجيِّدة من التداولُ – أجدُه خارجاً عن الصّدد. فهنالك المئاتُ بل الآلافُ من القوانين المرتَبِطة بحياتنا اليومية، في مُختلف مجالات المعرفة، أهمُّ بكَثير وأشهَرُ بكثير من جريشام وقانونِه – مثل قوانين مَنْدِل ونيوتُن وبويْل وأرخميدس وسِواهم.

وَيْلفتُني في هذا المجال تَعريفٌ لمادة «الكلب» في باب الثاء مُقابل المدخل «ثمثم» في الطبعتَين الأُولى والثانية من الوسيط. يقول التعريف:

«الثمثم هو الكلب – أو كلبُ الصيد – وكلاهما صِنفان من نوع واحد من جنس الفصيلة الكلبيّة ورُتبة اللواحم. والكلبُ حيوان أليفٌ مشهورٌ بالذكاء وتعَلّقِه بصاحِبه. وهو بطبيعَتِه من آكلاتِ اللحوم، ولكِنَّه يستطيعُ أن يستَبْدِلَ بها الأغذيةَ النباتية. وهو لا يَجْمَع أظفارَه في أكمامٍ كما يفعَلُ السِّنّور. وتوجَدُ منه عِدة أصنافٍ يختلِفُ بعضُها عن البعضِ الآخرِ في الشكل والحَجم واللون».

وحسَناً فعَل ضابطو الطَّبعة الثالثة من المُعجم الوسيط باختِصار هذا التعريف إلى «الثَّمْثَم هو الكلب أو كلب الصيد، وكلاهما صنفان من نوع واحد من جنس الفصيلة الكلبية من رتبة اللواحم من الثدِييّات».

ولعلّ الحَلَّ الأفضَلَ كان باختِصار التعريف أكثرَ بِمَقولَة «الثمثم هو الكلب أو كلبُ الصيد» مع الإحالة: انظر: كلب – حيث يجدُ القارِئُ ما نصُّه: الكلب حيوانٌ أهلي من الفصيلة الكلبية ورتبة اللواحم فيه سُلالات كثيرة تُرَبَّى للحراسة أو للصَّيد أو للجَرِّ.

وهو ما أجده كافياً ومناسباً في معجم لغويٍّ، بخاصةٍ أنه لن يخطر ببال أي مراجع طلبُ معلومات عن الكلب في مادة ثمثم.

ومادُمنا في مجال الشرح والتعريف، فإني أضيف إلى بسائط التِّقانة المُعجمية فنَّ اختيار كلمات الشرح دِقةً وأُسلوباً، والتأكدَ أن كلماتِ التعريف واردةٌ أو مَشروحةٌ، ضِمْنَ ذلك المفهوم، في مَوقعها في المُعجم.

وأبدأ بمثلٍ بسيط حيثُ كلماتُ الشرح لا ترِدُ في موقعها في المُعجم.

المعجم الوسيط لا يذكُر البطاطا ولا البطاطسَ كمَدخل، لكِنّه يستَشهِدُ بها في مادة عُسقول حيث يرد:

العُسقول (في علم الزراعة) جزءٌ من ساقٍ نباتية أو من جَذرٍ نباتي يكون جاسِياً مُكتنِزاً مُنتَفِخاً، مُحتوياً على مواد غذائية مُختَزنة كالبَطاطس. وكان يحمُل به أن يذكُرَ البطاطس (أو البطاطا) كمَدخلٍ ويُحيل الشرح إلى مادة عُسقول.

أما حيثُ كلمات التعريف غير مَشروحة بذلك المفهوم في موقعها من المُعجم، فإلَيكُمْ تعريفَ الهَودج في المُعجم نفسِه كأداة. فكيف مثلاً تتصورون أن يَفْهَم الولد تعريفَ الهَودج في المُعجم الوسيط بأنه: أداةٌ ذات قُبَّة توضَع على ظَهْر الجَمل لتركب فيها النِّساء. في حين يُعَرِّفُ المُعجمُ نفسُه الأداة بأنَّها: الآلةُ الصغيرة، و(في اصطلاح النحويين) هي اللفظةُ تُستَعْمَلُ للرَّبْط بين الكلام أو

للدلالة على معنًى في غيرها كالتعريف في الاسم أو الاستقبال في الفعل (ج) أدوات.

ربما يقولُ أحدٌ: السِّياقُ هنا يُساعد

فإليكم مثالاً من مُعجمٍ عربيٍّ حديث لا يُفيدُ فيه السِّياقُ ولا اللفظُ المستخدم في شَرح المفهوم – فهو في شرح المدخَل «وحيد المكافأة» يقول إنه: عُنْصُرٌ كيماوي تُساوي مُكافأتُه الوَحْدَة؛ وفي مادة «مكافأة» لا تجِدُ لها تعريفاً سِوى «مُقابلةِ الإحسان بمثلِهِ».

والمُعجمُ نَفْسهُ يُعرِّفُ الكيلوغرام بأنه: ألف غرام. وفي مادة غرام تَجد: الغرام (بدون شَكْل): الوُلوعُ، والحُبُّ المعذِّب، والهَلاك، ووحدةُ الوزن في طريقةِ القياس المِتري.

كذلك لا يجوز تعريف اللفظة بكلمة من أُسرَتها –كقول المعجم حَسُبَ الرجُل: صار حسيباً، والمِطالة: حِرفة المطّال، والمِكانِس: الملازِمُ الكِناس. والقُصعاء هي القاصعاء.

ولا بلفظٍ لعلّه أعسَرُ على الفهم من المِدخل –كقول المعاجم:

السَّبْسَب: هو المفازة، والجأب: هو المغرة، والكِظَّة هي البِطنة. والمقصورة هي الحجلة.

ولا بمُرادفٍ أو نَقيض يُعيدُك إلى لفظ المدخل في موقعٍ آخَر، كقول المعاجم:

العُوذة:هي الرُّقية، والرُّقية: هي العوذة.

والمِعسور: خلاف الميسور، والميسور: ضدُّ المعسور.

والميمنة: ضِد الميسرة، والميسرة: خِلاف المَيْمَنة.

ومما نرغبُ رؤيتَه في معاجمنا اللغوية إيرادُ معلوماتٍ عن اللفظة أكثَرَ من مُرادِفها ونقيضِها وتفسيرها –كأن يُشارَ ليس فقط إلى طبيعة الكلمة نفسِها، إن كانت من المعرَّب أو المولَّد أو الدّخيل، بل أيضاً إلى مُستواها من حيثُ أنه استعمالٌ تأدُّبي أو رَسمي أو فصيحٌ أو عامِّي أو نابٍ أو حُوشي أو مَهجور.

وفي حال الفِعْل أن يُشارَ إلى لزومِه أو تَعَدِّيه، وإلى حروفِ الجَرِّ التي تَلْحَقُ به، وفي كثيرٍ من الحالات تُغَيِّرُ مَعناه مثل رغِب، ورغِب إلى، ورغب عن، ورغب ب، ورغب في.

وفي حال تَعدُّد المعاني أن تُرتَّبَ حسَب شيُوعها إن لم يكُن المعجمُ ذا تطلُّعٍ تأريخي –كأن يَرِدَ مثلاً في تفسير امتازَ معنى الامتياز والفَضْل على الغَيْر قبل مَعنى الانفِصال والانعِزال عن الغَيْر الذي تُقَدِّمُه مُعظمُ معجماتنا.

لا خِلاف في مجال تقنيات المعجم الحديث على أنّ الرسوم والصور وحتى الخرائط تُعَدُّ رُكناً هامّاً من أركان الفن المعجمي، فالصورةُ الجيدة تُغني عن مئةِ كلمة شرح، كما يقول الصِّينيُّون.

لكني ألحَظُ أنَّ الصُّورَ والرسوم التوضيحيَّة في المعجم العربي هي من النُّدْرَة والسَّطحية بحيْثُ لا تُحقِّقُ الغَرَض منها – لا الفنِّيَّ جمالاً، ولا الشَّرحَ الذي يُعَزِّزُ التعريفَ إيضاحاً، وأُمثّلُ على ذلك بالمعجم الوسيط في طبعاتِه الثلاث.

فبعضُ الصور لا يُمكِنك معرفةُ كُنْهِه ما لم تقرأ الشرحَ لِتَسْتَنْتِجَ لِنَفْسِك ما يُمْكِنُ أن تكون كصور البسلَّى والثُّوم والحِرباء، والخيزُران، والخِيار، والدُّف، والزنبرك ، والرَّباب، وحوتِ العنبر، والمرجَل، والرئة، وسِواها.

عدا الكثيرَ من الصور التي أحسَنَ مُحرِّرو الطبعةِ الثانية والثالثة صُنْعاً بإلغائها إثرَ نَقدٍ وردَ بعضُه في كلمةٍ لي حول الموضوع في مجمع اللغة العربية الأُردني في عمّان أوائلَ الثمانينيات من القَرن الماضي.

هذا وبينما هنالك مئاتٌ من الأدواتِ والمسَمَّياتِ التي قد يحسُن إيضاحُها بالصُّوَر ولا صُورَ لها، هُنالك صُوَرٌ لأشياءَ مألوفةٍ جِداً ولا داعي لتصويرها كالبقرةِ والحِمار والعَنْز وقلم الرصاص.

وإنْ كانت المُعجميَّة يا سادتي عِلماً وفنّاً، فإنها أيضاً واقِعٌ حياتيٌّ يَخْضَعُ لِسُنَّة التطور والتوسُّع لاستيعاب ما جَدَّ من مفاهيمَ على تلك الألفاظِ والتعابيرِ نفْسها.

فمثلاً لماذا لا نجد في المعجم الوسيط مُخابَرَة بمفهوم مكالمة هاتفية،

ولا حيَويَّة بمعنى النشاط والعافية، أو حيَوي بمعنى بالغ الأهمية vital،

ولا مُضادّ حيَوي بمفهوم antibiotic (والمفهوم غير وارد أيضاً في مادة ضد) ولا تَجِدُ مفهوم «الحياد» و«محايد» neutral بالمفهوم الكيماوي – بمعنى لا حامضي ولا قاعدي، ولا بالمفهوم الفيزيائي بمَعنى لا سالبَ ولا مُوجِبَ الشِّحنة الكهربائية؟ فمفهوم الحياد يَقْتَصِر في المُعجم الوسيط على الحياد في الخصومات والحيادِ الإيجابي. كما يفتقد مفهوم «المتفاقِم» في كلمة خبيث طِبِّيّاً بمعنى malignant أو مفهوم «الإهلاك» مقابل Pernicious في وصف بعض العلل؟

كذلك ينبغي أن يشمل هذا التطوُّرُ التوسيعي ما جَدّ أو يجدُّ من الألفاظ العلمية والمصطلحات الواسعة الانتشار. فكما أدرجَتْ طبعاتُ الوسيط الأُولى

تِلفون وتلفِزيون نتوقَّع من طبَعاته الأجَدِّ أن توردَ راديو ورادار وروبوط وموتور وليزَر ومكروب. (ومن المفارقات أن لفظة مركيركروم واردة).

أنا شَخْصِيّاً أحرَص في جلسات مؤتمرات مجمعنا في القاهرة التي تُعالج ما يُعرَضُ علينا من موادِّ المُعجم الكبير، على اقتراح إدراج ما هو مُهم من المواد العلمية المجمعيّة المجمّعة لديّ التي أقرّها المجمع وغير الواردة في مواقعها من المُعجم؛ وأجد تجاوُباً حسَناً من لجنة المعجم دائماً.

هذا التطور أو التطوير الضروري لبقاء اللغة العربية لُغةَ اتصالٍ فعّالة – نُحَقِّقُه بخَلق مَفهومِ اللفظ من مَفهوم لفظٍ يُقاربُه بالتعريب ترجمةً –كما قُلنا في مِفرق: مقياس فَرق الجهد لِـ potentiometer، وتأريض في earthing، وبرّاد أو ثلاجة في refrigerator، ومعالِج في processor، ورُقاقة في chip، وخَضْربة في wake؛ أو باستعارة اللفظ كما هو بالتعريب الاقتراضي –كما قلنا في راديو ورادار وأسفَلت وجِينة وتلفون (وخَلّقنا هاتف لاحقاً) وفاكس (ونأمل أن تُنافسَها بالقوة نَفْسها لفظة ناسوخ) وديناميكي ومئاتٍ غيرها؛ أو حتى باستخدام اللفظةِ التي يَسْتَخدمها أهلُ الصَّنعةِ فنُرَقِّيها من العامِّية إلى المستوى المُعجمي كما قُلنا في سُنْبُك وزَرديّة وعتلة ومِدماك وضفيرة وبُرغي وصَمولة وطقم، وسواها كثير.

إن قضية المُعجم العربي ماضياً وحاضراً ومُستقبلاً ليسَتْ قضيةً مُنفصلةً عن قضية اللغة العربية نفسِها، بل عن قضية الإنسان العربي والشعب العربي ككُل.

إن مُثَقفينا للأسَف لا يُقارَنون إيجابيّاً حتى مع أشباه المثقَّفين في الغَرب من حيث الوعيُ المُعجمي. فالكثير من أولادنا وطُلاّبنا قد يُنْهُون حتى تعليمَهم الجامعيَّ دونَ أن يَعُوا دورَ المعجم العربي أو يتَعودوا استعمالَه روتينيّاً.

حبَّذا لو أنّ معلمي العربية عندنا يتمثَّلون بمُعلِّمي اللغات الأجنبية الذين يُشَدِّدون على استِخدام المُعجَم باستمرار لِفَهْم مُؤدَّى الكلمة وتَعَرُّفِ طريقة لَفْظِها وسِياقاتِ استخدامها.

حبّذا لو أن أُستاذَ اللغة العربية في المدرسةِ أو الكلية يُنَظِّم ولو مَرَّةً في العام مَشروعَ «معجميُّون في أُسبوع» يكتشِفُ فيه الطُّلابُ أهميةَ المُعجم ويتَدَرَّبُون على استعماله، ورُبما يُمارسون المهاراتِ المتعلِّقَةَ بصناعتِه في مُعجمٍ صغير يؤلِّفونه.

أذكُر أن عضواً إداريّاً في لجنة المُعجم العربي في مجمع اللغة العربية أخبرنا في جلسةٍ خاصة أنهم في مقابلاتٍ لاختيار مُحررين في لجنة المُعجم الكبير، شمَلت أكثر من عشرين مُتقدِّماً – جُلُّهم من حاملي إجازات الكليات في اللغة العربية، لم يجدوا بينهم أحداً ذا إلمام معجمي؛ وأن الكثير من المتقدمين غيرُ مُلِمّين حتى بطرائق البحث عن المداخل في القواميس التقليدية كلسان العرب أو جمهرة ابن دُرَيد – فاضطروا إلى اختيار حاجتهم ممن توسموا إمكانيَّةَ تدريبه.

الواقع الذي ألحَظُه وحبَّذا لو أكونُ مُخطئاً، أنه على فَقْر البيت العَربي في المكتبات، فإنه أشدُّ فَقراً في المعاجم.

إنك لتزورُ بيتَ المثقَّف الغربي فترى معجمَ الطفل إلى جانبِ المُعجم الإعدادي والجامعي أو العائلي أو الموسوعي – مجموعةً من المعاجم، لا مُعجماً واحداً.

لقد بدأنا في العَقدين الماضيين نشهَدُ وعياً معجميّاً بيِّناً – للأسف لم يكن كُلُّه في صالح المعجم العربي. فالمستوى الفَنِّي والعلمي الذي توصّل إليه العمل

المعجمي في لُغات العولمة يُخشَى أن يُحوِّلَ هذا الوعي لصالح المعاجم الأجنبيَّة التي غدَتْ تنافس المُعجم العربي كمَرجعٍ، تثقيفي بخاصةٍ، على أكثرَ من مستوىً.

وإني لأتطلَّع إلى معجم عربي بمستوًى لغوي وفنِّي ومعلوماتي بتقانات معجمية حديثة يُضاهي معاجم OXFORD أو Larousse مثلاً، معجمٍ يتواجد في كل بيت، ويُتهادى في كل مناسبة.

لقد كنّا السباقين، وكان المُعجم العربي سباقاً معنا وبنا. وبِتَخلُّفنا السلجوقي المغولي العثماني والقَبَليّ تخلَّف المُعجم العربي معنا وبنا.ومنذ إطلالة عصر النهضة حققنا الكثير. ولنا وطيدُ الأمل أن يحقق المُعجمُ العربي بهِمَّة من يهمهم أمرُه المزيدَ لمجابهة تحديات المستقبل.

علينا العملُ الجادّ، ومن الله التوفيق.